الباب الثالث

أ ـ المنهج الفكري

الفصل الأول : آيات الأحكام في العقيدة والفقه وقضايا الفكر الإسلامي .

الفصل الثاني : آيات النبوة وآيات العالم الغيبي والآيات العلمية .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
آيات الأحكام في العقيدة والفقه وقضايا الفكر الإسلامي

كلمة في المنهج :

يمثل هذا الباب المنحنى الفكري في صورته الوضاءة ونبعه البعيد الغور الخصب المعطاء عند أستاذنا الشهيد ~ وآية ذلك أن هذا الباب يتضمن قضايا عديدة عالجها الشهيد من خلال تفسيره آيات مختلفة ، ومن هذه القضايا ما يعد ، بلا مراء ، محاور فكرية للظلال كموضوع «التوحيد» و«الوحي والعقل» و«المجتمع الإسلامي والجاهلي» ، ومن هذه القضايا ما كان له من منها موقف إما بالتأييد أو بالرفض .

وأيا ما كانت الحال فإننا سنتتبع ما أثاره سيد قطب من قضايا مهمة تميزت بعلوقها بأعمق مسائل الفكر الإسلامي التي لم يجرؤ غيره على الإقدام على طرحها ، إما لكونه جبن عن خوض هذا المجال بعد أن لم يستأنس القدرة على مواجهة الواقع المهترأ للأمة الإسلامية بالحقائق الإسلامية على نحو ما كان عليه السلف الصالح من الجهر بالحق ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ويحملون ، وهم في معترك الدعوة ، على أكتافهم أكفانهم وإما لكونه عجز عن خوض هذا المجال بعد أن لم يستأنس في نفسه القدرة العلمية على معالجة مثل هذه الموضوعات الشائكة .

وسيد قطب ~ جمع الحسنيين : الجرأة في الحق ، والثبات على المبدأ بصورة لا نكاد نجد لها نظيرا اليوم ، والكفاية الفكرية العالية المتميزة .

ولم نقصد بآيات الأحكام هنا ما يتصل بعلم الحلال والحرام والمكروه والمندوب فقط ، وإنما قصدنا بذلك ما يشمل الأحكام عامة ، يعني ما أوحت به الآية الشريفة من حكم في موضوع سواء في الفقه ، أو غير الفقه من قضايا الفكر الإسلامي .

طريقة «الظلال» في تفسير آيات الأحكام الفقهية.

تختلف مواجهة سيد قطب لتفسير آيات الأحكام الفقهية عن مواجهة كتب التفسير لها قديما وحديثا في الغالب ، ذلك أن منهج «الظلال» آثر أن يضرب صفحا عن ذكر الخلافات الفقهية في الأحكام حفاظا على جمال القرآن ، وما يثيره هذا الجمال من أجواء ندية مخضرة ، ويكفي أن يعرض «الظلال» حينذاك النص القرآني ويشير إلى الخلاف الفقهي ، ويكتفي في ذلك ببيان الحكم حسب ما يوحي به النص ، ويرشد إليه دون تعسف في التأويل .

ويدخل في إطار خطته في مواجهة تفسير الأحكام الفقهية أنه لم يكن يتعصب لمذهب من المذاهب الفقهية ، بل إنه يحاول أن يبتعد عن التعصب المذهبي والتقليد الأعمى ، فلا يستشهد على حكم بقول من مذهب ما إلا في النادر وبدون الانحياز إلى جانب معين حين لا يكون هناك دليل من السنة ، أو حين يغيب عنه الدليل أو لا يعرفه ، كما يبدو من خلال المعالجة ، وإن لم يكن هناك تصريح بذلك ، وتلك محمدة تضاف إلى محامد «الظلال» .

وليس هذه ميزة خاصة بـ«الظلال» فقد سبقه مفسرون فهذا رأي الإمام القرطبي في تفسيره لم يكن يتعصب للمذهب المالكي إذا رأى أن حجته في مسألة ما ضعيفة [١] وذلك تفتح في الفكر ولالتزام بالإسلام الحق؛ ذلك أن الأئمة الأربعة ﷺ كلهم أجمعوا على أن التقليد شر ، وأن ثبوت الدليل ينتفى معه قول كل إنسان مهما علا شأنه .

شواهد :

عندما تصدى سيد قطب ~ تعالى ، لتفسير قوله تعالى من سورة المائدة :

---

(١) من ذلك حديثه عن الآكل ناسيا في رمضان ، ويرجع عدم القضاء خلافا لمذهب مالك ، وقد استدل على ذلك بالحديث الصحيح في الموضوع ، انظر ج٢ من تفسيره ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ صححه أحمد عبد المنعم عبد العليم البردوني .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم﴾ [المائدة:٦]، لم يقف طويلا عند الخلافات الفقهية، بل أشار إليها إشارة لطيفة لا تخل أبدا بجو الآية، فسكت نهائيا عن قراءة «لام أرجلكم» بالنصب أو الجر [١] تجنبا من الوقوع في التأويلات النحوية التي نشأ عنها الخلاف الفقهي والتي إن أوردها فإنها ستحجب الجو الجميل للنص، وها هو يقول في تفسير هذه الآية:

«إن الصلاة لقاء مع الله ووقوف بين يديه سبحانه »إلى أن يقول: «ومن هنا كان الوضوء فيما نحسب ـ والعلم لله ـ وهذه هي فرائضه المنصوص عليها في هذه الآية: غسل الوجه وغسل الأيدي إلى المرافق ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة أهمها هذه الفرائض على الترتيب الذي ذكرت أم هي تجزئ على غير ترتيب؟ قولان» [٢].

وقد يفصل القول في إيراد الخلاف الواقع في حكم من الأحكام الفقهية حين لا يرى أن ذلك لا يحجب الجو الجميل عن النص القرآني المعجز، وذلك مثلا في تفسيره قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقد أوردنا نصا له في هذا الموضوع سالفا [٣].

---

(١) قرئ «أرجلكم» بنصب اللام عطفا على وجوهكم وأيديكم وهي قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، ويعقوب، وحفص، وقرأها الباقون بالخفض عطفا على رؤوسكم المجرورة بالياء؛ ولذلك نشأ خلاف فقهي في قضية غسل الرجلين أو مسحهما، انظر ابن حيان «محمد بن يوسف» البحر المحيط ج ٣ ص ٤٣٦ وما بعدها، وانظر ابن الجوزي «محمد» النشر في القراءات العشر ج ٢ ص ٢٥٤ أشرف على تصحيحه علي محمد الضباع.

(٢) المجلد ٢، ص ٦٦٣، ٦٦٤.

(٣) ص ٥٠، من هذا الكتاب.

هكذا نرى «سيد قطب» يواجه آيات الأحكام الفقهية بطريقته الخاصة، إذ يضرب صفحا عن الخلافات حفاظا على الجو القرآني الجميل الذي يحياه بكل كيانه، ويشرك معه في ذلك قارئه، ويكتفي، لذلك، بالإشارة إلى هذا الخلاف مما يناسب الجو الرباني المشع للنص القرآني، وفي بعض الأحيان قد يورد الخلافات ويخوض فيها ويرجع إذا تأكد لديه أن ذلك سوف لا يجني على المتعة الروحية في ظلال كتاب الله، لكونه ـ أي سيد قطب ـ ليس كأي مفسر عادي يفسر القرآن الكريم فقط مقدما معانيه للناس، لا أنه يحيا النص القرآني، ثم بعد ذلك يقدمه للناس مفسرا كما يراه، وكما يحسه في وجدانه.

معالجة «الظلال» لآيات الأحكام في قضايا الفكر الإسلامي:

عالج سيد قطب ~، قضايا مهمة في الفكر الإسلامي من خلال ما تصدى لتفسيره من آيات تتناول أحكاما في هذا الباب، وهو بذلك قد بسط العديد من المباحث الفكرية جعلت منه حقا رائد الفكر الإسلامي المعاصر بلا منازع، وفيما يلي تحليلنا لهذه المباحث التي أرسى عليها «الظلال».

التوحيد:

إن الأساسي الجوهري الذي يرتكز عليه المنهج الفكري لسيد قطب في «الظلال» قضية التوحيد، إذ ما من أمر يتعرض له إلا وكانت عقيدة التوحيد الخالص مهيمنة على البيان والشرح، وذلك أمر بديهي؛ لأن التوحيد القاعدة الأساس للتصور الإسلامي، الأمر الذي جعله يتفرد عن جميع التصورات السائدة في طول الأرض وعرضها وحتى تصورات أهل الكتاب اليوم، مع العلم أن التوحيد نبع أصيل تغترف منه الأديان السماوية، بلا استثناء؛ إذ المصدر واحد لا يتعدد ولا يختلف بين دين ودين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]»[(١)].

(١) وراجع ما قاله في تفسير هذه الآية بالمجلد ٥، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

وحقيقة التوحيد ـ كما عند أهل السنة ، لا كما عند المعتزلة ، من السلف بعيدا عن كل تعقيد فلسفي ـ تقوم على ألوهية وعبودية : ألوهية تتفرد بخصائصها لا يشترك فيها المخلوقات .

وعبودية يشترك فيها كل المخلوقات إنسانا وحيوانا ونباتا وجمادا ، ويعني ذلك ان هناك إلها هو الله سبحانه وعبيدا ، والعلاقة بينهما علاقة الخالق بالمخلوق ، فالله تعالى واحد لا شريك له ينفرد بالألوهية ، وتدين له المخلوقات كلها بالعبودية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] .

على حين نجد التصورات الأخرى ركاما من الاشتراك يمتلئ أساطير وخرافات كما عند الهندوك الذين يعتقدون أن «إبراهما» هو الإله المتفرد بالخير والدوام والأزلية ، وجعلته حالا في الوجود [١] .

ونجد كذلك هذا متجليا في ديانة «أخناتون» التي اختلط فيها التوحيد بالوثنية حين جعل أصحاب هذه الديانة الشمس رمزا للآلهة ، وجعلوا اسمها يرادف «أخناتون» .

ونجد في اليهودية توحيدا ، غير أن بني إسرائيل جعلوا إلههم قوميا بجانب مفترياتهم الأخرى على الله تعالى من بينها قولهم «عزيز» ابن الله ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] .

ونجد المسيحية كذلك انتهت ـ وهي عقيدة التوحيد في أصلها ـ إلى التثليث المتجلي في الأقانيم الثلاثة : الأب والابن والروح القدس [٢] .

---

(١) انظر : ذلك بتفصيل عند وافي «عبد الواحد» الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ، ص١٩٦٣، وما بعدها ، ط١ ـ ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤.

(٢) انظر : أبا زهرة «محمد» محاضرات في النصرانية ، ص ١١١ وما بعدها .

ومدلول التوحيد ـ كما جاء في الكتاب والسنة ـ مدلول واضح يضيع في الكيان إشراقة اليقين ، فيحفز الإنسان إلى أن يعي ذاته ويعرف مهمته في الكون والغاية من وجوده ، ومركزه في الحياة ، الأمر الذي يقيه الوقوع في ذل العبودية لغير الله ، لأجل ذلك يصبح مصدر التلقي عن الله واضحا لديه في كل شؤونه في الحكم والسياسة والمال والتعليم والعلاقات المختلفة لا تغيب عنه توجيهاته في كل مجال : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف:٤٠] ، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى:٢١] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] .

وبفضل قاعدة التوحيد يصوغ المنهج الإسلامي ضمير الفرد وواقع المجتمع ، ويوجه العلاقات الإنسانية الوجهة الصحيحة ؛ لأنه القاعدة الأولى لجميع قواعد التصور الإسلامي ـ كما سبق الإلماع إلى ذلك ـ وأي تصرف يخل بهذه القاعدة فإن أي عمل لن يمكن عده في هذا الدين ، لهذا السبب كان مدار «الظلال» على هذه القاعدة ، فكل تفسير عند سيد قطب لآية التنزيل يغرف من نبع التوحيد في أي مجال من المجالات .

بالجملة ، فإن التوحيد يهيمن على كل أجواء «الظلال» ، الأمر الذي يجعل قارئه يزهر بالإيمان الشفيف ، والاستسلام المطلق لله تعالى في الأوامر والنواهي .

يقول في تفسير سورة النحل : «إنها الوحدانية في الألوهية ، روح العقيدة وحياة النفس ، ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر »[(١)] .

منهج القرآن ومنهج الفلسفة في العقيدة :

دعا سيد قطب ، ~ تعالى ، إلى الأخذ بمنهج القرآن الكريم في مجال عرض

(١) انظر المجلد ٥ ص ٢٢٧ .

قضايا العقيدة ؛ لأنه يختلف عن كل المناهج الأخرى ، ومنها منهج علماء الكلام الذين تأسوا بالفلسفة الإغريقية فسلكوا في مباحثهم العقدية المنهج الفلسفي ، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن الرؤية القرآنية في المجال العقدي على نحو ما عند السلف ، وقد أشار إلى ذلك عند تفسيره قوله تعالى : ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧] .

يقول : «هكذا كان القرآن ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب ، وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة ، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء »[(١)] .

وليس هذا بدعا فسيد قطب سلفي النزعة في عقيدته يلتزم الكتاب والسنة في كل أمر من أمور الحياة ، فما بالك بما يتعلق بشؤون التوحيد ؛ ولذلك يرفض أن تعالج قضايا العقيدة معالجة فلسفية على حين كتاب الله تعالى قد أغنانا عن الرجوع إلى أي مصدر معرفي آخر مادام قد مدنا بالمنهج الذي ينبغي أن نعالج به مثل هذه القضايا ، ذلك أن عرض العقيدة الإسلامية بغير منهجها ، وبغير أسلوبها المنبثق من ذاتها هو في الواقع جناية عليها ، وتعتيم لأنوارها ، وقد فصل هذا أيضا في كتابه خصائص التصور الإسلامي[(٢)] متناولا إياه تاريخيا ومنهجيا .

لكن يجدر بنا أن ننبه على أن الشهيد لا يعترض بتاتا على رد الشبهات ، غير أن رد الشبهات والكشف عن مخازيها شيء ، والفصل بين المنهجين : المنهج الفلسفي والمنهج القرآني في المبحث العقدي شيء آخر ، لهذا كانت كتبه كلها محاورة لمن يرفضون الإسلام منهجا للحياة .

---

(١) المجلد ١ ، ص ٥٨٨ .

(٢) ص ٩ ـ ١١ .

الوحي والعقل :

يرى الشهيد سيد قطب ، وذلك عند تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام] ، إن العقل ـ وهذا هو الحق بعينه ـ مهما أدرك ، من الحقائق ما أدرك فإنه لن ولن يستطيع أبدا أن يفسر ما هو فوق الطاقة الإدراكية له ، لأنه بطبيعته قاصر ، محدود بحدود الزمان والمكان لا يجد في نفسه القوة على تخطي الحواجز المفروضة عليه ؛ لذلك كان هناك عقلي وعقلك وعقل زيد وعمر ، ولم يوجد عقل مطلق لا يعتريه القصور ، ويغشاه النقص ، مما لا يسوغ معه عقلا أن نحاكم النص القرآني للعقل ، وذلك بتأويله ليوافقه ، إذ سوف نقع في خبط ، وإشكال ولا نصل إلى نتيجة مرضية مادامت العقول نفسها تختلف فيما بينها في التأويل نظرا لاختلافها في طرق التفكير ، وتنوعها في القدرات الذكائية ، على حين الوحي مصدره الله تعالى المتصف بالكمال المطلق المنزه عن النقائص؛ لذلك يتناول الوحي حقائق مطلقة كحقيقة الألوهية وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث وغير ذلك من المباحث الشائكة .

تأسيسا على ذلك يجب الاستسلام لمقررات الوحي الذي يغترف من العلم الكلي اللانهائي ، وليس يعني هذا أن سيدا يحجر على العقل ـ كما قد يبدو للبعض ـ بالعكس إنه يضع العقل في مكانه الذي يستحقه ، ولا يقحمه فيما يتنافى وطبيعته وجوهر تكوينه يقول موضحا هذه الفكرة في هذه الجملة ليس إلا ، فهي تغني عما بسطه بتفصيل : «والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى »[(١)] .

ويعد الأستاذ سيد قطب ~ ، من مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير وهي مدرسة متأثرة بأفكار غربية عن منهج التفكير الإسلامي الخالص[(٢)] .

---

(١) انظر : بتفصيل المجلد ٣ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) انظر : المجلد ٤، ص ١٩٥ بالهامش .

ويعلل سيد قطب هذه الظاهرة لدى هذه المدرسة التي يطلق عليها المدرسة العقلية بأنها كانت تعيش في ظروف خاصة من بينها مواجهة تيار النزعة الخرافية التي سيطرت على عقلية العامة حينذاك ، ومواجهة الأساطير والإسرائيليات التي امتلأت بها كتب التفسير [١] .

التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون :

تشكل هذه القضية رقعة فسيحة في تفسير سيد قطب ، لأنها في الحقيقة تحدد وظيفة الإسلام في الكون كله بمنظور شمولي لا نكاد نعثر له على مثيل عند المفسرين قديمهم وحديثهم ، ذلك أن السيد بحث الموضوع بحثا دقيقا ـ لا في تفسيره فقط ، بل في كل كتبه ـ واهتدى بفهمه النفاد إلى ما يميز به الإسلام من تصور خاص لجميع جوانب الحياة وارتباطه بالناموس الكوني العام ، وإنه بذلك يعد حقيقة كونية ككل حقائق الكون من شمس وقمر ونجوم وسماء وأرض ، فيتناسق والفطرة البشرية في كل زمان ومكان ، ويلبي أشواقها المتعددة يقول : «إن شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية » [٢] .

ويقول : «وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله لأن صاحبه صاحب هذا الكون كله صانع الكون وصانع الإنسان» [٣] .

وقد استطاع سيد قطب أن يوضح هذه المفاهيم توضيحا لا مزيد عليه لمستزيد ؛ إذ بينها في ميزان العلاقات بين الإنسان والكون والحياة القائمة على التوافق والتواد لا التباغض والتضاد ، وبينها كذلك في ميزان العلاقات الإنسانية وجعلها تتحدد في

---

(١) انظر : المجلد ٨ ، ص ٦٧٠ ، ٦٧١ .

(٢) المجلد ٢ ، ص ٧٢٧ .

(٣) نفسه .

الرحمة والعطف والمودة .

ويخلص سيد إلى أن الإسلام تصور شامل للحياة يعالج كل جانب من جوانبها بدون استثناء فهو إذا نظام لها في الحكم والاقتصاد والتعليم والسياسة والعلاقات الدولية ، ولا يصوغ في هذه الحالة أن نفرق بين جانب وجانب ؛ إذ توحيد الله تعالى يوجب التلقي عنه في شؤون الحياة ولا يجوز أبدا التبعيض والتجزئ في هذا الدين الكريم يقول في تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] .

«هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم فيشمل الهدي أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان ومكان ويشمل من يهديهم إليه كل منهج ، وكل طريق وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان »[(١)] .

وعلى هذا الدرب يمضي الأستاذ سيد قطب في بيان التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون ، ويدعو عبر مجلدات «الظلال »إلى فهم هذا المبحث المهم ، كما يدعو إلى ذلك في كل مباحثه الإسلامية ، لأن الإسلام ، بالقطع ، جاء ليكون منهجا للحياة ، ومن ادعى غير ذلك فإنه في الواقع إما جاهل لحقيقة هذا الدين ، وإما عنيد مكابر ختم الله على قلبه ، أو على بصره غشاوة فلا يرى الحق في صورته الواقعية ، ومن أجل هذه الفكرة قدم سيد قطب رأسه ، وجابه بثبات المؤمن القوة الباغية .

فقه الأوراق وفقه الحركة :

تعرض سيد قطب لحملات قوية حين عرج بالحديث على تفسير قوله تعالى من سورة يوسف : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ، فعالج موضوع «فقه الأوراق وفقه الحركة» ، وحين عرج بالحديث على غير هذا الموضوع كذلك .

فما هي هذه الحملات؟

إن الحملات التي وجهت للشهيد سببها موضوع «فقه الأوراق وفقه الحركة»

---

(١) انظر المجلد ٥ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

اضطلع بها على الخصوص بعض المفكرين ، فيهم الخبيث الطوية ، ينطق على دخن حسدا من عند أنفسهم ، وفيهم من يود إثارة الفتنة مدفوعا من جهة معينة تحب أن تشكك في قيمة رواد الفكر الإسلامي المعاصر لأجل قمع الحركة الإسلامية ، وعرقلة طلائعها عن التقدم نحو استشراف آفاق المستقبل .

قبل أن ندحض هذه الفرية يجدر بنا أن نقف وقفة مع مفهوم «فقه الأوراق وفقه الحركة» عند سيد قطب لنجعله منطلقنا للحديث عن الموضوع الذي نود إدارته لتحديد المفاهيم رفعا لكل التباس .

يعني فقه الأوراق عند سيد قطب وضع أحكام في مجتمع لا يدين بالإسلام ، بمعنى إنشاء فقه في فراغ مما يبعث في كيان الفقه الجمود بل الشلل ، يقول سيد في هذا : «إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة الحياة الإسلامية الواقعية »[١] .

ويعني فقه الحركة عند الواقع ، ذلك الواقع الذي جاءت النصوص تتحدث عنه ، وتشرع له الأحكام ؛ لذلك كان الواقع والنصوص في تصور فقه الحركة يؤلفان نسيجا واحدا لا يمكن فصل خيط من خيوطه عنه وإلا أصاب النسيج خلل عام يقول مبينا الفرق بين فقه الأوراق وفقه الحركة : «إن فقه الحركة يختلف اختلافا أساسيا عن فقه الأوراق مع استمراره أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها فقه الأوراق »[٢] .

إن من فهم بأن سيدا قد دعا إلى إلغاء الفقه الإسلامي فقد اشتط في الحكم اشتطاطا بعيدا نتيجة سوء الفهم أو عدم التروي في إصدار الأحكام ، ها هو نفسه

(١) المجلد ٥ ، ص ١٢ .

(٢) نفسه ص ١٣ .

يرد على من قد يظن هذا الظن السيئ بصراحة ، وكأنه شعر بأن هناك من سيتهمه هذا الاتهام الباطل فيقول : «إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامي ... ولكنها فقط بيان للمنهج الذي قد يأخذ به المجتمع الإسلامي الذي ينشأ ، عندما ينشأ ، وبيان لطبيعة المنهج الإسلامي في إنشاء الأحكام الفقهية ، إنشائها في مواجهة الواقع الفعلي للمجتمع الإسلامي ، للمجتمع الذي يعترف ابتداء بحاكميته الإسلامية »[1] .

هكذا يتبين بوضوح تام أن الشهيد ~ ، ما دعا إلى إلغاء الفقه الإسلامي ـ كما زعم أولئك ـ وإنما بين المنهج الذي يجب أن يأخذ به المجتمع الإسلامي المنتظر ، وبين كذلك طبيعة المنهج الإسلامي في إنشاء الأحكام الفقهية لمواجهة الواقع .

ويرمي سيد قطب من وراء هذه الدعوة العمل على الاحتفاظ بالجهد فلا يضيع في إنشاء الفتاوى ، وتحبير الأحكام لمسايرة تصورات الحياة والمجتمع لا يدين لله بالولاء ، وأصبح رأي سيد قطب واضحا جدا يتلخص في أنه لا يمكن بحال استيفاء الإسلام في معضلات الساعة ولم يقم بعد المجتمع الإسلامي الحق الذي يدين الله وحده ، ويقر بالحاكمية له أو يرفض قوانين البشر ، وذلك هو الرأي الصواب ، ذلك أن أية محاولة لوضع الأحكام المستمدة من الإسلام لمجتمع يتنفس في مناخ جاهلي سيكون مصيره الخيبة ؛ لأن الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تعمل عملها بالفعل إلا إذا أتيح لها المجال لأن تمارس أعمالها في كل ميدان حتى يكون هناك تناسق بين أجزائها وذلك ما يرفضه كتاب الله في قوله تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥] .

بيد أن هناك أمرا يجب التنبيه عليه رفعا لكل التباس وهو أنه حين رفض الدعوة

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، ط دار إحياء الكتب .

إلى تطوير الفقه لم يقصد الفرد ، إذ ليس من المنطق في شيء أن يرفض الإفتاء لمن يرويه من الفرد المسلم كالسؤال عن المعاملات الربوبية ، وعن أنواع التأمينات وغير ذلك مما يعترض المسلم من قضايا الساعة الملحة .

تقسيم الفقه إلى عبادات ومعاملات :

لما أخذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى من سورة المائدة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] ، أثار قضية تقسيم الشريعة الإسلامية إلى عبادات ومعاملات ، ودعا إلى إلغاء هذا التقسيم ، وقد بنى دعوته على آراء وجيهة ووجيهة جدا ، بل آراء صائبة تتركز في أن الفقه الإسلامي في مراحله الأولى ـ يعني قبل التدوين ـ لم يكن مجزءا هذا التجزؤ ، وحين اقتضى التفكير العلمي إلى التقسيم الفني لأجل تقريب المعارف الفقهية إلى المدارك أصبح هناك تقسيم يفصم أجزاء الشريعة بعضها عن بعض مما أحدث فيها بعد آثارا سيئة في الحياة الإسلامية ، إذ أمسى مفهوم العبادة حدود الآفاق عند الناس لا يخرج عن «فقه العبادات» على حين الشق الثاني من العبادات أو ما يسمى بالمعاملات ضمرت مكانتها في النفوس حتى صار المسلم ينظر إلى العبادات على أنها مظهر الإيمان الحقيقي ، وأما المعاملات ، فإنها لا ترقى إلى درجتها وأنها لا تؤلف الجانب المهم في التصور الإسلامي [(١)] .

فرأي سيد قطب ~ ، بالجملة والتفصيل هو إعادة النظر في هذا التقسيم وإرجاع ما كان عليه النشاط الإنساني في التصور الإسلامي ؛ إذ العبادة في الإسلام تشمل كل جانب من جوانب الحياة ، وأن قيمة الحياة ترتفع حين تصبح في صورتها العامة عبادة لله تعالى ، بدون استثناء ، وصدق الله حين يقول : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ

(١) انظر : ما قاله في هذا ، المجلد ٢ ، ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، وانظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٢٩ .

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

ولقد بين شمولية العبادة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في كتابه «العبودية» خير بيان [١] .

المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي :

تتردد كلمة «الجاهلية» في فكر سيد قطب ~ تعالى بصورة لافتة للنظر؛ إذ لا تكاد تقرأ صفحة أو صفحتين من كتاب إسلامي له إلا عثرت على هذه الكلمة .

فما هي دلالة هذه الكلمة عند سيد يا ترى؟ هل هي الدلالة نفسها التي تطالعنا في كتاب الله تعالى أم يقصد بها دلالة أخرى غير الدلالة القرآنية؟

نود أن ندير الحديث عن هذا الموضوع إدارة ترتكز على المناقشة الصريحة المجردة يرفدها التأني والروية ، فما غرضنا إلا أن نخلص إلى نتيجة نستريح لها ، ويستريح لها كل من يقرأ هذا البحث بعد أن أثيرت في الأعوان الأخيرة قضية تكفير المسلمين .

فهل حقا كفر الشهيد سيد قطب المجتمعات الإسلامية حين أطلق عليها وصف «الجاهلية» ، وهل عد أنظمتها كافرة ، لأنها لا تطبق أحكام الله في حياة الناس؟ .

قبل أن نشرع في إدارة هذا البحث يجدر بنا أن نعمد إلى المصادر اللغوية أولا نستفتيها في مادة «جهل» وبعد ذلك نستفتي الاستعمالات القرآنية وهي حجة على اللغة ، ثم نعقد موازنة بينها وبين ما يقصده سيد قطب ~ من «الجاهلية» عبر مباحثة الإسلامية وعلى الخصوص في «ظلال القرآن» .

عندما نعرض القواميس اللغوية وعلى رأسها الموسوعة اللغوية الكبرى «لسان العرب» [٢] لابن منظور نجدها كلها تتفق في أن مادة «جهل» ضد «علم» ،

---

(١) ص ٢ .

(٢) انظر : ج ١١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، وانظر كذلك الفيرزآباذي «محمد بن يعقوب» القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٣٥٣ ، وانظر : الزمخشري «محمود» أساس البلاغة ، ص ١٠٧ وراجع الفيومي «أحمد» المصباح المنير ج١ ، ص ٧٦ .

«و«يجهل» على قومه يتشابه عليهم قال عمر بن كلثوم (م نحو ٤٠ ق .هـ نحو ٥٨٤م) .

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهل فـوق جهـل الجاهلينـا (١)

ومن المجاز كما يقول الزمخشري : «جهلت القدر اشتد غليانها» (٢) ولا يخرج الراغب الأصفهاني في معجم «ألفاظ القرآن» (٣) عن هذه الدلالات التي ساقتها القواميس المختلفة .

وحين نعمد إلى كتاب الله تعالى نستوضحه الاستعمالات لهذه الكلمة فإننا لا نجد مفهومها يختلف عن المفهوم الذي تناولته القواميس اللغوية ؛ إذ لا يشذ عن إطار معنى الجهل ، ولكنه الجهل بالله تعالى وشرائع الدين ، مما يدفع إلى حالات الرعونة كالمفاخرة بالأنساب والانسياق مع أهواء النفس الأمارة بالسوء دون تقدير للمسؤولية مادام ليس هناك رادع من دين يردع عن ارتكاب السفاهة في فترة هي في أشد الحاجة إلى الرسالة السماوية تدعى «الجاهلية» .

فلننظر إلى الآيات التي وردت فيها كلمة «الجاهلية» فنجدها لا تتعدى أربع آيات ليس إلا : قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۚ﴾ [آل عمران:١٤٥] ، وقال جل شأنه في سورة المائدة : ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] ، وقال ﷻ في سورة الأحزاب : ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب:٣٣] ، وقال سبحانه في سورة

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فأصبحنـــا ولا تبقـى خمـــور الأندرينـــا

انظر : الزوزني «الحسين بن عبد الله» شرح المعلقات السبع ، ص ١٦٥ ، ط ٣ .

(٢) أساس البلاغة ، ص ١٠٧ .

(٣) ص ١٠٠ .

الفتح : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:٢٦] .

وحين ندقق النظر فيها نلحظ في الحقيقة أنها تعبر عن الفترة الزمنية قبل الإسلام ، ولا نحتاج إلى تحديد هذه الفترة بزمن نوح عليه السلام أو بزمن غيره كما عند الزمخشري في التفسير ـ [(١)] تصف حال الناس وهم يعيشون في ضلال من أمرهم من الجهل بالله سبحانه ، والكبرياء كالمفاخرة بالأنساب والتمسك بالمعصية وغير ذلك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحالة بالمصدر الصناعي ، إذ أضاف إلى كلمة «جاهل» ياء مشددة بعدها تاء مربوطة ليدل على معنى مجرد لم يكن يدل عليه قبل ذلك ، وهذا المعنى المجرد يشكل مجموعة من الصفات تتعلق بهذا اللفظ ف«جاهل» معناه ظاهر ، لكن بعد أن لحقته الياء المشددة والتاء المربوطة أكسبته صفات تتعلق بالجاهل كالسفه والانحراف عن الجادة والتعنت وهلم جرا [(٢)] .

ولعل القرآن الكريم هو السابق إلى استعمال هذه الصيغة للتعبير عن حالة الشرود والتيه في جو قاتم من الظلال ، ثم ظهر استعمالها في الحديث الشريف في قوله ﷺ لأبي ذر الغفاري وذلك حين عير بلالا رضي الله عنه بلون سواده : «**إنك امرؤ فيك جاهلية** »، ذلك أننا لا نظفر بما لدينا من نصوص للشعر الجاهلي ـ وهي الوثائق الأدبية التي يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال ـ بهذا المصطلح الجديد الذي استعمله القرآن الكريم ، وبصيغة المصدر الصناعي .

ويبدو لي بعد هذا أن سيد قطب ، ~ تعالى ، هو أول من استعار هذا المصطلح

---

(١) المجلد ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٢) يكون المصدر الصناعي في الأسماء الجامدة كالحجرية والحيوانية وغيرها ، وفي الأسماء المشتقة كالعالمية والفاعلية وكلمة الجاهلية من المشتق ، لأنه اسم فاعل من «جهل» ، والغاية من المصدر الصناعي هي وصف حالة أو لصياغة اسم جديد لمذهب أدبي أو فكري مثل الاتباعية والتجريدية والاشتراكية .

من القرآن الكريم واستعمله في الفكر الإسلامي الحديث إن لم يكن قد استعمله قبله الأستاذ الداعية أبو الحسن الندوي كما يشير إلى ذلك الدكتور مهدي فضل الله [١] .

ومع كل ذلك فإن كلمة «الجاهلية» ، في الحقيقة ما شاعت بهذه الصورة التي نعرفها اليوم إلا بسبب ترددها في مباحث الشهيد على نحو يلفت الأنظار ، مما جعل هذا المصطلح يسير مسيرة الشمس فيشيع على الأقلام الإسلامية كما شاع غيرها من الكلمات التي كانت تتردد كثيرا في أساليب سيد قطب مثل «عقوبة الفطرة» وهذا ليس غريبا ، فالشهيد صاحب مدرسة في الأسلوب العربي متميزة كما سنعرف في الباب الأخير من هذه الدراسة بحول الله .

وحين نستوضح سيدا ~ تعالى ، عن مدلول «الجاهلية» يجيبنا معرفا إياها بقوله : «الجاهلية ليست فترة تاريخية ، إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر أهواء أفراد أو أهواء طبقة أو أهواء أمة أو أهواء جيل كامل من الناس ... فكلها مادامت لا ترجع إلى شريعة الله ... أهواء .

يشرع فرد الجماعة فإذا هي جاهلية ؛ لأن هواه هو القانون ، أو رأيه هو القانون لا فرق إلا العبادات ... إلخ [٢] .

كان سيدا ، في الحقيقة ، دقيق النظر ، سديد الرأي ، شديد الملاحظة وهو يحدد مفهوم «الجاهلية» في أهواء البشر سواء أكانت أهواء أفراد ، أم أهواء طبقة ، أم أهواء أمة فهي أهواء تملي على الناس قانونا يختلف أساسا ومنهج الله تعالى .

وكان دقيق النظر ، صائب الملاحظة وهو يرفض أن يجعل الجاهلية تنحصر في

---

(١) انظر : كتابه مع سيد قطب في فكره السياسي والديني ، ص ١٢٩ .

(٢) لقد تكررت تعريفات الشهيد للجاهلية ، وكلها تعريفات واحدة مع اختلاف في الأساليب ، انظر الظلال المجلد ٢ ، ص ٧٢٩ ، و ص٧٥١ والمجلد ٣ ، ص ٤٦٢ ، والمجلد ٦ ، ص ٥٨٤ .

فترة تاريخية معينة ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين [١] من أنها تمثل الزمن الذي ولد فيه إبراهيم ، أو الزمن بين آدم ونوح وبين إدريس ونوح ، أو بين داود وسليمان عليهم السلام ، أو ما بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام .

إنه يرى الجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام ، ودلالتها تتكشف بوضوح في كل مرحلة تاريخية حينما تمارس الجماعة أية جماعة أوامر بشرية متمردة في ذلك على أوامر الله تعالى .

فالجاهلية ، إذا ، موجودة في كل عصر حين توجد مقوماتها ، وهي في صميمها رجوع بالتشريع إلى أهواء البشر ، تلك الأهواء التي تملي القوانين الظالمة لتعبد لها الناس .

فهل يقصد سيد قطب حين يصف المجتمعات الإسلامية بالجاهلية ، تكفير هذه المجتمعات أم يكفر الأنظمة؟

إن الغلط الذي وقع فيه البعض حين وهم أن سيدا كفر المسلمين آت من عدم التفرقة بين المجتمعات الإسلامية كأفراد والمجتمعات الإسلامية كأنظمة .

والحق أن الشهيد ~ ، ما كان ليكفر المسلمين كأفراد وفيهم طبقات مختلفة من الناس : طبقة العلماء ، طبقة المثقفين ، طبقة أنصاف المثقفين ، طبقة الأميين ، مما تدين لله بالولاء ولرسوله ويطبقون في حياتهم مدلول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في الصورة المرضية التي قد تشوبها الخرافات وضلالات .

أما أنظمة الحكم فقد حكم سيد قطب ~ ، بتكفيرها نظرا لصراحة النصوص الواردة في الموضوع ، ذلك أنها رفضت الحاكمية لله تعالى ، ورضيت بالتشريع الوضعي الذي أملاه الهوى البشري وقد استدل على ذلك بقوله مالي : ﴿وَمَن لَّمْ

(١) انظر : الزمخشري «محمود» الكشاف المجلد ٣ ، ص ٢٦٠ ، وانظر كذلك : ابن كثير «إسماعيل» تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ .

يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، وبقوله سبحانه : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥]، وبقوله ﷻ : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] .

وقد علل البعض بأن الكفر الوارد في الآية ليس هو الكفر البواح ، إذ الكفر مراتب ، وهذا في الواقع ما يذهب إليه أهل السنة والجماعة ، إذ يقولون بكفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق [(١)] وسيد قطب من أهل السنة ، بدون شك ، لكنه لا يرى هذا في تفسيره حين يتعرض لتفسير هذه الآيات الثلاث ؛ إذ إنه يستند في شرحها على ما يوحي به النص القرآني .. ما تنطق به ملابسات الواقع الذي تحياه أمة الإسلام .

ويعضد سيد قطب ، بجانب ذلك ، كلامه بقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] يقول مفسرا هذه الآية ومعتذا في الوقت نفسه بما ورد من تفسير لرسول الله ﷺ ـ وهو فصل الخطاب ـ وبما ورد كذلك عن الأوائل والمتأخرين : «إن العبادة فهي الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ ، فاليهود والنصاري لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم ، مع هذا فقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية وبالكفر في آية تالية في السياق [(٢)] .

ويعد سيد قطب ، ~ تعالى ، التعبير بالظلم ، وبالفسق في القرآن الكريم تعبيرا

---

(١) انظر : أبا حيان «محمد بن يوسف» البحر المحيط ، ج ٣ ، ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣ ط١ وانظر : ابن كثير «إسماعيل» تفسير القرآن العظيم٢ ، ص ٦١ .

(٢) انظر : تفصيل تفسير الآية في المجلد ٤ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

عن الكفر غالبا ، لا كما شاع عند الفقهاء المتأخرين ، وهو بهذا يرفض قول من قال بأن الظلم والفسق عصيان كما يقول في تفسيره لقوله تعالى من سورة «الأعراف» ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٥، ١٦٦] .

يتبين من كل هذا أن سيد قطب ~ تعالى ، قد أدان أنظمة الحكم القائمة في العالم الإسلامي بالكفر والشرك بالحجج الدامغة بما لم يبق معه تأويل لمتأول .

أما ادعاء بأن الناس يجهلون ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالحاكمية والعبادة بمعناها العام وغير ذلك فلا يقوم حجة ، إذ إن هذه الأمور التي تعلم من الدين بالضرورة لا يمكن أن يعذر أحد بسبب جهلها ، وفي هذا يقول سيد في تفسير قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٦٧] .

«والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين ، لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية »[1] .

خصائص كلا المجتمعين :

بهذه النظرية الصائبة التي يقدمها لنا سيد قطب ~ ، عن المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي تتحدد معالم كلا المجتمعين ، وتتحدد مميزات وخصائص كل واحد منهما :

فالأول : يعد تجمعا عضويا تحركه العقيدة ، وتجعل منه كائنا حيا يعمل ، وهو بذلك ذو تصور فريد عن الكون والإنسان والحياة ، يرفض العبودية لغير الله تعالى ، ويعلن حرية الإنسان وميلاده من جديد ويتقبل كل الأجناس على اختلافها .

ومن طبيعة هذا المجتمع بصفته تجمعا حركيا مستقلا بقيادته وولائه ، منفصلا

(١) المجلد ٥ ، ص ٣٦ .

عن الكيان الجاهلي لاختلاف الطبيعتين .

والثاني : يعد هو أيضا تجمعا عضويا تحركه عقيدة فاسدة عن الكون والإنسان والحياة توجه التصورات وجهة تجني على الفطرة ، وتسلب الإنسان مميزاته كإنسان ؛ لذلك يجب على المجتمع الإسلامي أن ينفصل عن المجتمع الجاهلي ؛ لأن الجاهلية لا ترضى أن يكون للمجتمع الإسلامي كيان خارج عن سيادته وهي من أجل ذلك لا تسالمه ولن تسالمه ـ وحتى لو سالمها هو ـ وهذا من طبيعة تركيبه العضوي ، ويعني هذا أن المسلم ينبغي أن يفاصل المجتمع الجاهلي ، ويحتاط من الاندماج فيه [١] .

العزلة الشعورية :

ولسيد قطب رأي صائب آخر يورده ضمن نظريته عن المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي ، وهو أنه يدعو المسلم إلى أن يعتزل البيئة الجاهلية وأن يفارقها على أساس العقيدة ، ويحذر الاندماج في غمارها حتى لا يصير ضمن أحد أعضائها العاملين ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا ، وأحسب أن هذا الرأي هو الذي تأثر به بعض الشباب المسلم أخيرا ، فراحوا يكفرون كل أفراد المجتمع الإسلامي ويقاطعونهم مقاطعة تامة ـ حسب ما أوردته الصحف والجرائد المصرية الرسمية ـ وهذه الجماعة تدعى في الأصل «جماعة المسلمين» وتسمى عند الإعلام الرسمي في مصر «جماعة التكفير والهجرة» ويرأسها شكري مصطفى ~ [٢] .

---

(١) انظر : حديث سيد عن ذلك في المجلد ٥ ، ص ١٤٥ .

(٢) هذه الجماعة نشأت في السجون حين شملت الاعتقالات الإخوان المسلمين سنة ١٩٦٥ وشملت غيرهم من العاملين في الحقل الإسلامي بطريقة وحشية لم يسبق لها نظير ، فامتلأت بهم السجون وكانت هناك جماعة من الشباب يرأسها مهندس زراعي يسمى شكري مصطفى ~ ، وبعد أن أفرج عنها دبرت ـ كما نقلت ذلك وسائل الإعلام المصري ـ اغتيال الشيخ محمد الذهبي وزير الأوقاف ، وقد قام الإعلام المصري الرسمي بإسهام كبير في إخفاء الحقائق ، إذ وجهت شتى =

ومن ينظر إلى نظرية سيد قطب في قضية المفاصلة على أساس العقيدة بروية ، فإنه لا يجد التكفير ينسحب على كل فرد في المجتمع ، ثم إن المفاصلة ليست عنده عامة في كل مجال ، إذ العزلة الشعورية عنده شيء والتعامل اليومي شيء آخر [١] .

منهج العمل الإسلامي وخصائص :

حينما نقول : منهج العمل الإسلامي نقصد المخطط الذي ينهجه المشتغلون بالدعوة الإسلامية لأجل تطبيق الإسلام ، وجعله يتحرك في الحياة يواجه الجاهلية المتسلطة .

هنا ينتصب سؤال في خاطرنا : هل هذا المخطط الذي ينهجه المشتغلون بالدعوة مخطط رباني أم أنه من صنع الإنسان وليس له أدنى علاقة بالسماء؟

يجيب الشهيد على هذا السؤال من خلال التمهيد لسورة «الأنعام» [٢] ويرى أن المخطط الذي ينهجه الإسلام لقلب الواقع الجاهلي في كل عصر مخطط إلهي هو كجميع الحقائق التي نص عليها الإسلام ، وليس أدل على ذلك من أن القصص القرآنية تتضمن الحديث عن المنهج الموحد الذي سلكه رسل الله عليهم السلام في دعوة أقوامهم ، والمنطلق العقدي الموحد الذي صدروا عنه في هذه الدعوة ،

= التهم لهذه الجماعة وهي منها بريئة وما حاولت أن تتحدث عن الجماعة حديث المنصف المتزن ، وحكم على شكري مصطفى ورفاقه بالإعدام فجر ١٠ ربيع الآخر ١٣٩٨ ـ ١٩ مارس ١٩٧٨ انظر : مجلة آخر ساعة العدد ٢٢٢٢٩ عام ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ ، ومجلة النهضة الكويتية العدد ٥١٠ ـ ١٩٧٧ وانظر : جريدة الأخبار المصرية العدد ٨٠٣٧ ـ ١١ ربيع الآخر ١٣٩٨ موافق ٢٠ مارس ١٩٧٨ .

وقد صدرت في شأن هذه الجماعة كتب من بينها «ذكرياتي مع جماعة المسلمين» «التكفير والهجرة» للأستاذ عبد الرحمن أبي الخير .

(١) انظر : معالم في الطريق ص ٢٢ ، ٢٣ ط ٢ .

(٢) انظر : حديثه مفصلا بالمجلد ٣ ، ص ٩٣ .

والمواقف العنادية الموحدة التي جابهت بها قوة الشر الكافرة الدعوات السماوية الخيرة فكان ما كان من المواجهة [١] .

خصائص منهج العمل الإسلامي :

يتميز منهج العمل الإسلامي بخصائص لا يتميز بها أي منهج عمل جاهلي آخر ؛ لأنها خصائص ربانية في لحمتها وسداها تفرد بها هذا المنهج ، فكان بذلك منهجا فذا قائم الذات ، مستقل الكيان معجزا بطبيعته الخاصة ، وفيما يلي عرض لهذه الخصائص [٢] .

١ ـ الواقعيـــة :

الواقعية من خصائص الإسلام ؛ لذلك كانت من منهج العمل الإسلامي ، وتشمل واقع الدعاة بما يحيط به من ملابسات ، وأحوال عديدة تبرز في إمكاناتهم الفكرية والنفسية والمادية ، وتشمل كذلك واقع الحياة الجاهلية بما تزخر به من أفكار سامة يتولى الطاغوت حمايتها بكل ما أوتي من قوة .

والواقعية في منهج العمل الإسلامي واقعيتان :

أ ـ واقعية جدية .

ب ـ واقعية حركية

أ ـ الواقعية الجدية :

إن الواقعية الجدية في طبيعة منهج العمل الإسلامي الرئيس هو إلغاء سيادة الجاهلية وإحلال سيادة الإسلام بدلها وذلك بالعمل على مجابهة الواقع الجاهلي بما يكافئه بكل وسائل الدعوة لتصحيح الاعتقادات الفاسدة ، ويخطئ من يفهم أن نصر الله قريب منهم وهو لم يتخذ بعد الوسائل المكافئة للواقع المر الذي يواجههم ،

(١) انظر : حديثه مفصلا بالمجلد ٣ ، ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ .

(٢) تراجع بعض هذه الخصائص في معالم في الطريق فصل الجهاد في سبيل الله ، ص ٧٥ .

وإن المثال المناسب في هذا المقام هو ما وقع للمسلمين في غزوة «أحد» [١] .

ب ـ الواقعية الحركية :

حركة منهج العمل الإسلامي ذات مراحل ، ذلك أن الدعوة الإسلامية مرت بمراحل وقارنت [٢] هذه المراحل مواقف ، تعددت حسب طبيعة كل مرحلة ، فكانت الفترة المكية فترة تربية وإعداد للجماعة المسلمة استعدادا لليوم الموعود ، وجاءت الهجرة ، وتم تأسيس الدولة الإسلامية ، وبعد ذلك تحددت العلاقات بين الدولة الإسلامية والجاهلية المتفشية ، وجاء الأمر بالقتال وشرع الجهاد لإزالة الطواغيت من الأرض وإخراج الناس من عبودية البشر إلى عبودية الله تعالى [٣] .

من هذا يتبين أن الواقعية الحركية في منهج العمل الإسلامي تعني التحرك الإيجابي لإزالة الجاهلية الرعناء ، وإلغاء واقعها الفاسد ، وإقامة واقع إسلامي جديد تسعد في أظلاله البشرية الشقية .

٢ ـ الإجابية :

هي من خصائص التصور الإسلامي [٤] ، وهي أيضا من خصائص المخطط الإلهي في منهج الحركة الإسلامية ، وتبرز في تمثل المدلول العقدي في الصورة الواقعية الحية ، فالمؤمن يضطلع بهذه المهمة العظيمة خير اضطلاع حين يشعر بالمسؤولية على حقيقتها ، ويلتزم بتصوره الإسلامي ، ويقيم نظام حياته على هداه .

٣ ـ التضحيات :

إن منهج العمل الإسلامي لا يمكن بحال أن يتحرك بنفسه دون أن يكون هناك

---

(١) انظر : حديث سيد عن ذلك بالمجلد ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) يستعمل الكتاب اليوم قارن بمعنى وازن وهو من الأخطاء الشائعة ، والصواب هو صاحب كما استعملناها .

(٣) انظر : حديثه عن ذلك بالمجلد ٤ ، ص ١٧٠ .

(٤) راجع خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ١٧٠ .

من يحمل على عاتقه عبء الدعوة ، ويضحي بكل أهواء النفس وتطلعاتها ، ويؤثر ما عند خالقه على ما عند العبد ، وعندما نستقرئ النصوص القرآنية والحديثة نستخلص منها دعوة الإسلام إلى الاستماتة ، واسترخاص الأنفس لأجل إقرار كلمة الله في الأرض من ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٤] .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» (١) .

٤ـ المرمى والغاية :

إن المرمى الذي يرمي إليه منهج العمل الإسلامي هو الفوز برضى الله تعالى سواء تحقق النصر أو لم يتحقق فلا يأس ولا تشاؤم من طبيعة هذا المنهج .

وحين نستعرض دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام كما صورها لنا كتاب الله تعالى نلحظ أنهم بذلوا جهدا مضنيا في ترسيخ دعواتهم ولم ينتظروا من وراء ذلك نصرا .

ومهما يكن من أمر فإن الغاية المرجوة من منهج العمل الإسلامي هو دك قلاع الشرك وهدم حصون الكفر ، وإقامة سيادة الإسلام .

٥ـ الفطرية :

حين أقول فطرية المنهج أقصد ما يتميز به من رحمة ورفق والفطرة التي خلق الله عليها الإنسان ، والتي تحدث عنها في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] .

ومن الفطرة أن الإنسان محدود القدرة في تحمل المشقات ، فهو لا يستطيع أن يطبق ما ليس في قدرته ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

---

(١) رواه أبو داود .

ومنهج العمل الإسلامي لا يخرج هو الآخر عن هذا الإطار فهو يراعي أشواق الفطرة ، ويوقع على أوتارها ويحاول ألا يصطدم بنداءاتها المتعددة ، حاثا الدعاة على تحمل الأذى حسب الطاقة استشرافا لرضوان الله الذي هو مطلب كل داعية .

ضرورة قيام الجماعة الإسلامية :

لا يكف سيد قطب ~ عن الدعوة إلى قيام الجماعة الإسلامية بعد أن شمل الفساد النظم الأرضية ، وسار بسبب ذلك انحراف صارخ في التصورات والأفكار والعادات ، وهو ما تحدث عنه الله تعالى في قوله كاشفا عن سنته في الكون حين تضمر التقوى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١] .

لقد شمل ، إذا ، الفساد كل جوانب الحياة : فساد في الأخلاق فساد في التشريع ، فساد في التعليم ، فساد في السياسة ، فساد في الحكم ، فساد في الفن قصة وشعرا ومسرحا .

ويبدو من خلال تجربة أستاذنا سيد قطب الطويلة في ميدان الدعوة ، ومن خلال فقهه العميق لسنن التغيير بنواميس التطور من طول ممارسته للقرآن الكريم ولخبرته بالتركيبة المجتمعية ، للأمة الإسلامية وللمجتمعات الغربية ، يبدو من خلال ذلك أنه شعر بضرورة الدعوة إلى قيام الجماعة الإسلامية ، فوضع لهذه الجماعة أسسا ترتكز عليها استمدها من الكتاب والسنة والسيرة النبوية العطرة ، وتنبأ بظهور هذه الجماعة تقودها الطلائع فأصبح لذلك من الضروري عنده قيام الجماعة الإسلامية تقوم بدور طلعي لإنقاذ البشرية مما تعانيه من شقاء ، وتتمثل هذه الجماعة في مجتمع إسلامي يقو على الركائز الآتية :

١ ـ الرابطة العقدية [١] .

(١) راجع بتفصيل معالم في الطريق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ، والمجلد ٤ من الظلال ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ .

٢ـ الترابط العضوي [١] .

٣ـ قيادة [٢] إسلامية [٣] .

٤ـ الولاء لله ولرسوله والقيادة المؤمنة .

وبدون هذه الركائز مجتمعة لا يمكن أن تقوم الجماعة الإسلامية متينة البنية ، قوية الشكيمة تلك الجماعة التي قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا** » ، «ثم شبك بين أصابعه» .

على حين التجمع الجاهلي غير التجمع الإسلامي روحا وبنية وتصورا ، لكنه مع ذلك لن يسالمه بحال لكونه يدافع عن وجوده وعن باطله وتهافته وهو ما نشاهده اليوم .

*****

(١) راجع بتفصيل المجلد ٤ ، ص ٦٨ .

(٢) نفسه .

(٣) راجع بتفصيل المجلد ٢ ، ص ٧٥٦ .

obeikandl.com